الرواية القصيرة في الأدب الجزائري الحديث

قراءة في رواية هوامش الرحلة الأخيرة لمحمد مفلاح

Short novels in the Algerian modern literature

A study of the margines of the last trips novel by Muhammed Muflah

الدكتور: عزالدين جلاوجي

جامعة محمد البشير الإبراهيمي ، الجزائر

Azzedine.djellaoudji@univ-bba.dz

تاريخ الاستلام: 2020/10/19 تاريخ القبول: 2020/11/07 تاريخ النشر: 2020/11/14

ملخص:

يقدم المقال بسطا للرواية القصيرة "النوفيلا" من حيث المفاهيم والنشأة والتأريخ في الأدب الغربي والعربي، ويبحث في تجلي ذلك من خلال تجربة الأديب الجزائري محمد مفلاح خاصة في روايته "هوامش الرحلة الأخيرة" التي يمكن اعتبارها نموذجا للرواية القصيرة في الأدب الجزائري.

كلمات مفتاحية: الرواية القصيرة، محمد مفلاح، هوامش الرحلة الأخيرة.

Abstract:

The article presents a simplification of the short novel "The Nofila" in terms of concepts, origins, and history in Western and Arab literature, and examines this through the experience of the Algerian writer Mohamed Miflah especially in his novel "The Margins of the Last Journey" which can be considered a model for the short novel in Algerian literature.

Keywords: the short novel; Muhammad Miflah; Margins of the Last Journey**.**

1. مقدمة:

لابد أن أشير في البداية إلى إشكالية التجنيس التي تعصف بالأدب، والتي عادة ما تسيل حبرا كثيرا، فيما سمي بنظرية الأجناس، التي اعتبرها بعضهم "أكبر انتصار لضلال دعاة الذهنية"[1]، ومن الأجناس السردية مصطلحات القصة والقصة القصيرة والقصة القصيرة جدا والأقصوصة والرواية، والقصة الطويلة، وحتى في الثقافة الغربية نلاحظ أيضا حضور كم كبير من المصطلحات، إلى أن تم الاستقرار على بعضها، وهو ما نجده مثلا في الفرنسية، بين **Conte**، **Roman**، **Novelle**، غير أن التجنيس يبدو بالغ الأهمية، يقول **هيرش Hirsh** "إن قدرتنا على فهم نص من النصوص يرتبط مباشرة بتلقينا له من حيث النوع"[2]، ويقول **وولتر ستمبل** "الجنس سلطة يضمن قابلية فهم النص من وجهة نظر صياغته ومحتواه"[3]، غير أنه يمكن أن نتفق على أن "الأجناس الأدبية ماهي إلا أنماط عقلية ومفاهيم لها صلاحية تاريخية يساعد استخدامها على تربية الحس على النظام، وذلك يرشد الناقد والمؤلف والمتلقي"[4]، ولكن كيف يتم تحديد جنس من غيره، إذا لا يكفي أن ندّعي ذلك على غلاف الكتاب، فليس الاسم هو الذي يضبط الجنس، بل البنية الأجناسية، لأن النص يتعالق نسيجه وتتداخل قرائن تشكله، لأنّه يتعدّد ولا يخلُص وفق تمامية بنائه إلى ملمح نسقي ينفرد به، لذلك لم يعد مأخذ التوصيف الأحادي يطاوله ، إن النص دوما ينفلت من وسم الإجماع عبر التسمية التي يؤديها له ،لأن (دراسة الأجناس يمكن أن تتم انطلاقا من الخصائص البنائية وليس بدء من أسمائها)[5] ، وفق هذا فإن عمليات التحديد الأجناسي تظل افتراضية غير قطعية لأن النصوص لا تُلزم إلى حرج الكيانات الضيقة وهي تفضي دوما إلى التوسّع وفاعلية اللاتحدّد عبر انفتاحها عل التعدّد

اللساني للصيغ الأنواعية.

2. تعريف الرواية القصيرة:

يعرفها محمد عبيد الله في كتابه بنية الرواية القصيرة بقوله "نوع سردي بيني يقع بين القصة القصيرة والرواية"[6]، ويعرفها **معجم السرديات** بقوله: "نثر تخييلي قصصي أطول من الأقصوصة، وأقصر من الرواية باعتبارها جنسا أدبيا"[7].

1.2معايير التحديد:

هناك من يركز في معايير الرواية القصيرة على الشكل الخارجي على اعتبار أنه مؤشر لا يمكن إغفاله، يذهب **محمد عبيد الله** في قوله وهو يركّز على الحجم تركيزا عاما "والمألوف... أن تزيد الرواية القصيرة عن الحجم النمطي للقصة، وتقل عن حجم الرواية"[8]، كما يحدد أحيانا عبر اعتماده على معايير الصفحات، فتضبطه **ماري دويل** انطلاقا "من صفحات قليلة إلى 300 صفحة"، ويذهب بعضهم إلى تحديدها بعدد كلماتها، حيث حصرت بين سبعة عشر ألفا وخمس مئة كلمة وأربعين ألف كلمة (40000/17500) [9]، وهذا الاختلاف في الحجم، يزيد الأمر تعقيدا، ويوقع الكتاب والنقاد في ارتباك وقلق، مما يجعل هذا النوع في مهب الريح، ومما يجعل عددا جما مما يسمى اليوم روايات هو في حقيقته روايات قصيرة، مثل: **خبز الأرض لحسن نصر، ورمانة للطاهر وطار، وسفر السالكين لمحمد مفلاح، واليربوع لحسين فيلالي**، غير أن النقاد يعاملونها على أنها روايات، مما يعني إسقاط فرضية الشكل الخارجي.

وهذا ما بلغيه بعضهم ويتأبّاه، في نحو طرح **قراهام قود Graham good**: "ليس هناك عدد سحري من الكلمات تتوقف عنده القصة القصيرة، أو تبدأ منه الرواية"[10]، ولذلك تجاوزوا الشكل إلى البينية في البناء الفني والتقنيات السردية الأخرى، وبالتالي فهي أقرب للنوع الهجين، تتمثل عبر اندماج عناصر قصصية وروائية بحيث يشكل نوعا مغايرا تخلص في الحاصل إلى الرواية القصيرة، ومن أهم خصائص الرواية القصيرة التي خلصت إليها **هيلاري كيلباترك** وفق ملمح مثل هذه التعيينات الآتية:

1. التركيز على شخصية واحدة .
2. التركيز على حدث محدّد.
3. التركيز على الأهم، دون الاهتمام بالتفاصيل المفرطة، والتحليل المكثف.

ومن ذلك **عود عل بدء للمازني 1943، وقنديل أم هاشم ليحي حقي 1944، وغادة أم القرى لرضا حوحو 1947، رمانة للطاهر وطار 1969**، بل يمكن اعتبار معظم ما كتبه العرب رواية قصيرة، كونهم لم يضاهوا الغرب عبر مطولّاتهم الروائية ولا الشعرية الملحمية.

3.حقيقة النوفيلا -"الرواية القصيرة":

هناك من يعتبره الرواية القصيرة قصة وإن كانت طويلة، حيث يذهب **خيري دومة** إلى أنها تختلط بالقصة من جهة وبالرواية من جهة ثانية، وقد خصص هذا الباحث في كتابه "**تداخل الأنواع في القصة المصرية القصيرة**، الفصل الأول من الباب الثاني للرواية القصيرة، إذ يخلص في طرحه إلى أن : "النوفيلا شكلٌ من أشكال القصة القصيرة، يربطه بالرواية اتساع المدى وكثرة الشخصيات ونموها النسبي"[11]

وهناك من يخصها بالتحديد الأجناسي كونها، جنسا خاصا متميزا عن الرواية والقصة القصيرة معا، وله **مراميه السردية** وأهدافه، وبنيته وطريقته الخاصة في اختيار مادته، ولو أنها تطورت عن القصة القصيرة، يقول **ماري دويل** "كانت في الأصل نوعا من القصة القصيرة"[12].

كل هذا التجاذب والتدافع التقريبي من جهة صورية التعيين المعياري قد حقق مأخذا، كي يتوسّع صوب تحليل الموضوعات ونحت معالم الشخصيات كما تفعل الرواية، ولكن وفق طول محدّد إذ تركز في المقابل اهتمامها على موضوع بعينه، فتُشاكِل بين القصة والرواية.

إضافة إلى ذلك، يذهب الباحثون إلى أن لرواية القصيرة قد سبقت الرواية القصيرة الرواية، التي بدورها تطورت عنها، كما احتفظت بخصائص الحكاية الشعبية، والأدب الشفوي أكثر من الرواية، وغالبا ما تتألف الحبكة من عنصر الخِداع والحيلة، مما يستعصي ضبط تفسير الأحداث وفق منظور عقلي، كما في قصص الأشباح.

1.3تاريخ النوفيلا :

تعد روايات الإيطالي **بوكاتشيو Boccaccio (1313-1375)** نقطة البداية، كما يعدها البعض انطلاق القصة القصيرة أيضا بوصفها حفرية التشكل البدئي، كونها ظهرت بين عامي **1350-1353**، بإصداره مئة قصة بعنوان **الديكاميون Decameron**، استخدم المؤلف لفظ **نوفال Novelle** بوصفه وسما أجناسيا لها، وهو يتقصّد بذلك معنى جديدا أو حديثا على اعتبار اعتماده النثر، إذ ارتكز

في ذلك على من سبقه الشعر، وقد كتب **بوكاتشيو** أعماله بعد أن اجتاح الطاعون مدينته، وكانت معظم قصصه عاطفية، كقصة (انتصار المرأة)[13].

كما انتقلت **الرواية القصيرة** إثر ذلك بسرعة إلى فرنسا، فنسجت على منوالها عشر مجموعات قصصية، أهمها **الهبتامرون L'heptmetron لمارغريت دي نافار Marguerth de navarre**، إذ تحكي عبر سردها عن قصة عشرة أصدقاء رجالا ونساء أجبرتهم الأحوال الجوية السيئة على البقاء في الريف، فراحوا يحكون ما عندهم من قصص، ومن فرنسا انتقلت إلى ألمانيا وللعالم كله[14].

ومن أشهر الروايات الغربية القصيرة، **الشيخ والبحر لأرنست همنغواي**، وفي لعالم العربي يمكن أن نذكر **بهاء طاهر، صبري موسى، صنع الله إبراهيم، يوسف القعيد**، إذ، تسعى هذه المقالة وهي تخصّ طرحا النقدي في الحديث عن الرواية القصيرة من خلال تجربة الأديب الروائي **محمد مفلاح**.

4.مفلاح كاتبا للرواية القصيرة:

يعد **محمد مفلاح المولود سنة 1953** من أغزر الكتاب الجزائريين وأكثرهم تنوعا أيضا، فقد كتب في القصة والرواية والمسرح الإذاعي وقصة الأطفال والبحث التاريخي والموروث الشعبي، كما يمكن أن نجزم أنه قد اتخذ لنفسه منحى ومسارا لم يكد يحيد عنه لسبب أو آخر، هو الانتصار **للرواية القصيرة**، فمنذ روايته الأولى "**الانفجار**" التي **نشرتها مجلة آمال سنة 1983**، إلى روايته **شبح الكلدونيّ**، مرورا بـــ : **بيت الحمراء، زمن العشق والأخطار، هموم الزمن الفلاقي، الانهيار، خيرة والجبال، الوساوس الغريبة، عائلة من فخار، انكسار، سفر السالكين**، وهو أميل إلى الخوض في هذا النوع، وقد لاحظنا أنه في رواية على "**هامش الرحلة الأخيرة**[15] كان أكثر ارتباطا بهذا النوع، كونها الأصغر حجما إذ يمكن تقدير عدد

كلماتها بـ: 16000 كلمة، وقد صدرت عن **دار الكتب بالجزائر** بحجم صغير في 105 صفحات، مقسمة إلى أحد عشر مفصلا مرقمة.

1.4العتبة/النوفيلا:

إن المتأمّل في وسم العنوان يلاحظ ببساطة أنه يحيل على ما هو قصير، كأن الكاتب منذ البداية يُعلن عن أن عمله لن يكون سوى رواية قصيرة، لأن ما سيكتب عنه لن يستحق أكثر من ذلك، يتجلى هذا بداية في لفظة **هامش**، فهو إذن لن يكتب لنا عن المتن، وشتّان بينهما، عمقا يحدد الحجم، إن الكاتب يُفصِحُ منذ البدء، أنه سيكتب مجرد **هوامش** لا غير، كما يتجلى أيضا من صيغة وسم عنونة: "**الرحلة الأخيرة**"، مما يوحي أنه لن يطاول جلّ غمار الحياة، ولكنه يكتفي بالمُجتزأ السياقي منها المتمثل في صوغه: **الرحلة الأخيرة** التي لا تكون في العادة إلا قصيرة، بعد استنفاد الجهد والطاقة، وعليه فإن محمول **رحلة أخيرة** لن يؤدي لها كتابة إلا من جهة هامشها، وكل ذلك لا يتطّلب منه استغراقا و توسّعا في الكتابة وبسطا في أداء استحضار الأحداث.

فاتحة النص الروائي الذي ورد على لسان الشخصية الأساس يعزز ما ذهبنا إليه، "أصبحت حياتي بسيطة، أعيشها بلا مبالاة، تنساب الأيام الكالحة أمامي، وأنا أتفرج على تفاهتها، مضت فترة الشباب التي ملأتها آمال جميلة...."[16] ، وهو استهلال يبدي فيه السارد جهده وضنكه ومللـه، إذ يقر ضمنه أنه يقف على حافة العمر الجارف، ومعنى ذلك فإنه لزاما من مقتضى صوغ الإفصاح أن ما سيحكيه لن يكون إلا قصيرا أيضا ومبتسر التكوين.

2.4مفاصل الرواية:

يتحدد منطلق تشكّل الرواية في إحدى مقاهي وهران والأمطار الغزيرة تعلن عن دخول فصل الشتاء بقوة، وسريعا تنتقل الأحداث إلى الشاحنة حيث يفاجأ **معمر الستيني** باقتحام فتاة عشرينية عليه شاحنته ولا يملك تحت إلحاحها إلا أن يأخذها معه في رحلته الليلية الطويلة باتجاه الصحراء، ولا يتخلص منها إلا ضواحي مدينة **أفلو** مرورا **بغليزان وتيارت**، ليخوض في لُجّة الأوحال والظلام بحثا عن فتاته الهاربة، وحين يتملكه اليأس من العثور عليها يواصل الطريق ليلتقي في **ورقلة** فجأة بصديق قديم **هو قدور الفجي**، الذي صار ثريّا بطرق مشبوهة، متعاليا في سلوكه على الآخرين، وأخيرا وصل إلى **عين أمناس** حيث التقى بعض العمال، ثم اشتبك عبر سياق ملاسنة حادّة مع رئيس العمال عن تأخره في الوصول بالمؤونة إليهم، ليجتمع برفاقه العمال ويعيد عليهم مغامرته مع الفتاة مع تحوير طفيف، ثم تنتابه أزمة قلق فينهار ويؤتى له بالمسعف، وأخيرا يحصل على عطلته فيعود إلى أسرته، تلك الليلة في الطائرة، حيث يرتاد مقهى السائق، ليتعرف من النادل على ساجية، وأخيرا تنعطف به العودة صوب الحي والبيت غير أن الذي يساوره هو إحساسه ببرودة اللقاء وفتور التواصل وبخاصّة من عائلته.

3.4هوامش تقنيات السرد:

زمنيا تقع أحداث الرواية كلها في أيام قد لا تتجاوز الثلاثة، تسير تقريبا في خط أفقي، **فمعمر** يخرج ليلا سائقا لشاحنته الرمادية من "**وهران**" ليصل إلى "**إن أمناس**" وسط الصحراء ثم يغادرها متقاعدا، رغم أن الكاتب يسمح لبطله إن جاز التعبير كي يسترجع أحداثا وقعت له أثناء الثورة التحريرية حين قتل **المعمر** أباه مما دفعه إلى الانتقام منه والالتحاق بالمجاهدين في جبال المدينة، أو

أحداثا وقعت له في قربته عاملا مهاجرا بفرنسا، وانحسار الزمن يفرض أن تكون الرواية قصيرة، بل قصيرة جدا، حتى لو حاول أن يطيل أنفاسها باسترجاعات كثيرة.

مكانيا وسياقيا تتدرّج الأحداث بين **مقهى بوهران**، إلى **السد الأخضر** بمنطقة **أفلو** إلى **مقهى بورقلة**، إلى **إن أمناس**، عودة سريعة إلى المقهى وصولا إلى البيت، والكاتب لا يكلّف نفسه عناء كبيرا في وصف هذه الأمكنة، ولا العودة إليها بالأحداث كل مرة، إنه يمر عليها بسرعة كأنما هو في عجلة من أمره للتخلص منها فينسف عبر شطط الحركية مشهدية الأسيقة المكانية، لذلك فالقارئ لا يكاد يمسك بالهيئة المكانية عبر الأداء السّارد، وصفا نعتيا للمورفولوجيا المكانية أو للقرائن المائزة لجوهر المكانية .

على مستوى الشخصيات رغم أن الروائي **محمد مفلاح** يشحن نصّه بعشرات الشخصيات، التي لا نعرف منها غالبا إلا أسماءها أو بعض مميزاتها لكنها في العموم تبقى باهتة، ولا يكاد يعود إليها مرة ثانية، مثل صديقه القديم الذي التقى به في مقهي **بورقلة** فجأة ليتعرف على واقعه اليوم، ويحدثنا عن ماضيه في **فرنسا**، ثم لا يعود إليه مطلقا، وكذلك الكثير من الأصدقاء العاملين معه في **إن أمناس**، وأسرته وجيرانه، ليخصّص حصة الأسد من غالبية المكوّن النصّي لشخصية **معمر الجبلي**، الذي رغم أنه أهمل بعده الجسدي، غير أنه في المقابل أولى أهميّة قصوى لبعده الاجتماعي والنفسي، فهو بقدر وطنيته وإخلاصه ووفائه لقيم الوطن والمجتمع والأسرة أيضا، عصبي المزاج يثور بسرعة إلى حدّ الانهيار

العصبي أيضا.

وعلى الرغم من كلّ ما تقدم من انحصار الزمان والمكان والشخصيات أيضا، فإن الكاتب حاول عبر سعيه، إيراد أكبر عددٍ من الأحداث وإن كانت بسيطة وجزئية، غير أن تركيزه الأكبر ينصبّ على لحظة الحصول على التقاعد، مما يوحي بأن الرحلة المقصودة في العنوان لم تكن رحلة السفر محصورة من نقطة لأخرى، بقدر ما انحصرت في رحلة معنوية من حياة العمل وأسيقتها المختلفة إلى حياة التقاعد.

كان يمكن للكاتب أن يجعل الرواية مدخلا لرواية طويلة يتتبع ضمنها مسار بطله المتقاعد، ليكشف لنا واقع المتقاعدين وعلاقاتهم مع محيطهم ومع أسرهم بخاصة.

كما كان يمكن في المقابل أن تتشعب الأحداث أيضا مع صديقه **قدور الفجي** الذي أثرى بطرق غير شرعية، ومع أسرة ساجدة المجنونة، ومع نادل المقهى، وبذلك يخلص المكوّن الروائي كي يخلص إلى مُكن التوسّع النصي حجما.

غير أن نهج الروائي **محمد مفلاح** لم يسلك صوب الحذو المستغرق إذ أراد لها أن تتوقف عند حرج الحدود، وهو اختيار نقدّر مسلكه وفق مقدِّرات مكنة الكتابة لديه، هو دون شك أراد أن يقول لنا ما أردت أن أكتب إلا رواية قصيرة، حيث يمكن للقارئ أن يتخيل لهذا النص القصير إضافات وما افترعت له فجاج خياله من الافتراض المبتغى، فيشترك بذلك في بناء نص لم يقل كل شيء.

5.خاتمة:

يمكن أن نستقر عند النتائج التالية:

1- الرواية القصيرة شكل تعبيري مختلف له مميزاته وخصائصه التي تجعله

مفارقا للرواية من جهة وللقصة القصيرة من جهة أخرى.

2- لعل عصر السرعة الذي تعيشه البشرية اليوم ستنتصر للرواية القصيرة، نفورا من الروايات الطويلة وانفلاتا من ضنك الاستغراق.

3- وفق مُقدّرات مقاييس الحجم يمكن اعتبار جل ما كتبه الروائيون العرب هو أقرب إلى الرواية القصيرة.

وعبر الحاصل المؤدّى من هذه المقاربة النقدية من التحليل، يعد الروائي **محمد مفلاح** من أهم الروائيين الجزائريين الذين تبنّوا هذا الشكل التعبيري، من حيث الالتزام بخصائصه من جهة ومن حيث صنّافة تعداد النصوص التي أصدرها.

6. قائمة الإحالات:

[1] محمد عبيد الله، الرواية القصيرة في الأردن وفلسطين، بنية الرواية القصيرة، الأردن (دار أزمنة، 2006 م) ، ص 17.

[2] المرجع نفسه،. ص 20.

[3] المرجع نفسه . ص 20.

[4] المرجع نفسه، ص 21.

[5] O.Ducrot , T.Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage .éd-Seuil. 1972 PARIS. P. 193

[6] محمد عبيد الله، الرواية القصيرة في الأردن وفلسطين، بنية الرواية القصيرة،، ص 30.

[7] مجموعة من المؤلفين، معجم السرديات،إشراف محمد القاضي، تونس،(دار محمد علي للنشر، 2010م) ،ص 224.

[8] محمد عبيد الله، الرواية القصيرة في الأردن وفلسطين، بنية الرواية القصيرة،، ص 30.

[9] مجموعة من المؤلفين، معجم السرديات، إشراف محمد القاضي، ص 224

[10] محمد عبيد الله، الرواية القصيرة في الأردن وفلسطين، بنية الرواية القصيرة، ص 30.

[11] المرجع نفسه، ص 48.

[12] المرجع نفسه، ص 32

[13] المرجع نفسه، ص 33.

[14] المرجع نفسه، ص 36.

[15] محمد مفلاح، هوامش الرحلة الأخيرة، الجزائر،(دار الكتب، 2012)

[16] المصدر نفسه،.ص 5

المصادر والمراجع:

1. محمد مفلاح، هوامش الرحلة الأخيرة، الجزائر،(دار الكتب، 2012)
2. محمد عبيد الله، الرواية القصيرة في الأردن وفلسطين، بنية الرواية القصيرة، الأردن (دار أزمنة، 2006 م)
3. مجموعة من المؤلفين، معجم السرديات،إشراف محمد القاضي، تونس،(دار محمد علي للنشر، 2010م)
4. O.Ducrot , T.Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage .éd-Seuil. 1972 PARIS